35
علماء العرب

ابن ملكا

أبو علم الحركة

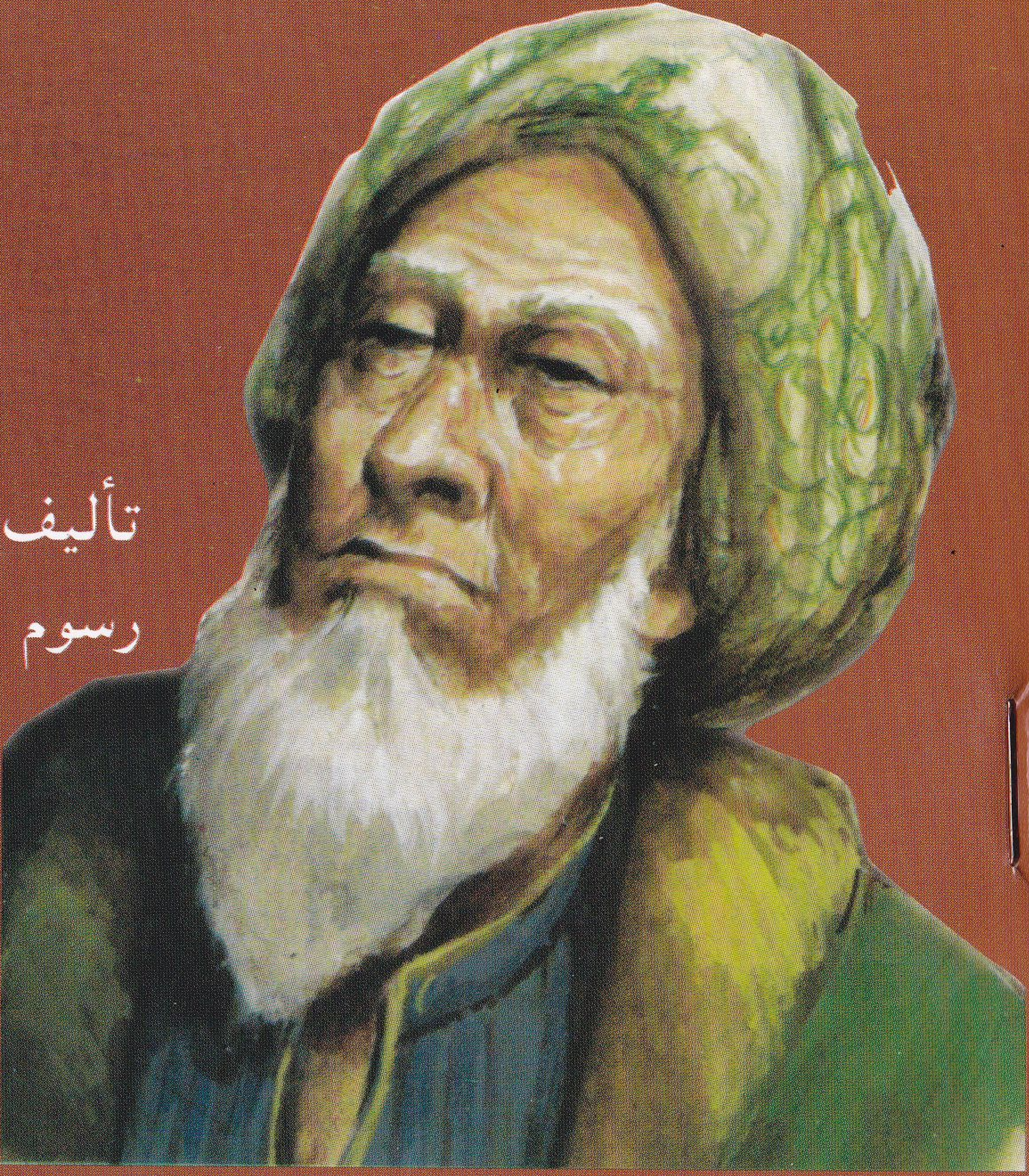

تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

منشورات ANEP

علماء العرب

ابن ملكا

أبو علم الحركة

تأليف : سليمان فياض

رسوم : اسماعيل دياب

الكتاب: ابن ملكا
سلسلة علماء العرب
المؤلف: سليمان فياض
تصميم الغلاف: بديعة ميدات
الناشر: منشورات ANEP

50، شارع خليفة بوخالفة – الجزائر
الهاتف/فاكس: 61 89 23 21 213 / 85 64 23 21 213
الهاتف: 32 68 23 21 213 / 16 89 23 21 213
فاكس: 90 64 23 21 213
e-mail: editionsanep@yahoo.fr

الطبعة الأولى 2006
ISBN : 9947-21-279-3
Dépôt légal : 1699-2006

جميع الحقوق محفوظة لمركز الأهرام للترجمة والنشر

أُريدُ أنْ أكونَ شمساً

طَوَالَ نهارِ يومِ السَّبتِ، لَم يُفارِقِ الابتِسامُ والضَّحِكُ المُتقطِّعُ وَجهَ «عليِّ بن مَلَكَا البَغدادِيّ». كانَ اليَومُ يَومَ عُطلَتِه الأُسبوعِيّةِ، وقَد جلَسَ في الشُّرفةِ، مُستَروِحًا نَسَماتِ الرَّبيعِ، يتنقلُ مِن مَقعدٍ إلى مَقعدٍ، ناشِدًا ضَوءَ الشَّمسِ وحَرارتَها في رُكنٍ بالشُّرفةِ حينًا، والظِّلَّ الرَّطْبَ، في ركنٍ سِواه، حينًا آخرَ. يتناولُ حينًا مَشروبًا بارِدًا تجلبُه له زَوجَتُه، وحينًا مَشروبًا ساخِنًا. وترقبُ في دَهشَةٍ وجهَ زوجِها «عليّ» مبتسمًا، وضاحِكًا، دونَ أن تَسألَه عَنِ السَّبَبِ. ومع وقتِ العصرِ، جاءَتِ الزَّوجةُ وجلسَتْ بمقابلِه، وأقبلَتْ خادمةٌ تحمِلُ صينيّةً عليها طعامُ الغَداءِ، وضعَتْها بينَهما عَلى المِنضدَةِ.

وذهبتِ الخادمةُ وعادَتْ تحملُ دوْرَقًا بِه ماءٌ مثلَّجٌ وكُوبانِ زُجاجيان، وضعتْهما بجوارِ الصّينيّةِ على المنضدةِ. وقالت لها زوجةُ عليّ:

- اذهبِي أنت، وكوني قَريبةً منّا.

وانسحبتِ الخادمةُ، وكشفتْ زوجةُ عليّ غطاءَ الصّينيّة عَن طَعامِ الغداءِ. كانَ طعامًا بَسيطًا، نباتيًا كله بلا لحمٍ، ولا دُهْن، ولا لَبَن، خُضرَواتٌ طازَجةٌ، وفاكهةٌ ناضجةٌ وشُوْربةُ حَساءٍ عُصِرَ عَليها اللَّيمُون. وانتظرتْ أن يَمُدَّ زَوْجَها يدَه إلى طَعامِ الغَداءِ، وكانَ زَوجُها شارِدًا، وعَيناهُ تبتَسِمان. ونَظَرتْ إلى زَوجِها مستفهِمةً، وكأنَّها تَقولُ له: كُلْ، لكنّها فوجِئَتْ بزوجِها يضحَك، ويغرِق في الضَّحِك. هزّت رَأسَها مُستفهِمةً، فقالَ لَها وهو لا يزالُ يَضحَك:

- تَصوَّري مَاذا قالَ لي ابنُنا «هبةُ اللّه» في الصَّباحِ. لقد قالَ لِي: أريدُ أن أكونَ شَمسًا.

وسكتَ لَحظةً، وقَال وهو يمدُّ يَدَه إلى طَعامِه، ويأكلُ:

- لَولاَ أنَّني أعرِفُ رَجاحَةَ عَقلِه، وفِطنَتِه، لظننتُ أنَّ بِه نَقصًا فِي عَقلِه.

فَقالَتْ له زَوجَتُه باسمةً:

- كُلُّ أولادنا أذكياءٌ والحمدُ لله، وعَلى خُلقٍ قَويم. لكنْ. ماذا كانتْ المناسبةُ التي قالَ لَكَ فيها «هبةُ اللّه» إنّه يريدُ أن يَكونَ شَمسًا.

فقالَ لَها:

- كُنتُ أطلُبُ منهُ، أن يستعِدَّ للعملِ مَعِي في مَتْجَرِ الصّياغةِ بحيّ الرُّصَافةِ ببغداد، أو مَعَ أخيه في متجرِنا الآخرِ بالكَرْخ، إذا لم يشَأْ أن يَعبُرَ الجِسرَ مِن ضِفّةِ نَهرِ دِجْلة الغربيّة، إلى الضِفّةِ الشّرقية. أتعرِفينَ ماذا كانَ جَوابُه؟ لَقد قالَ لِي: أريدُ أنْ أكونَ شَمْسًا.

ولم يضحَكْ عليّ في هذِه المَرّةِ، فَقَد بَدَا عَلى وَجهِه القَلَق، وقالَ:

- لَم أرَه يَومًا يَذهَبُ إلى مَعبدِنا اليَهوديّ. أتَظنّينَ أنّه يُريدُ أنْ يَكونَ مِن عَبَدةِ الشَّمسِ. كيفَ وَقَد وَلَّتْ أزمنةُ عِبادةِ النّاسِ للنُّجومِ، والكواكبِ، والأوثانِ؟

وفُوجِىءَ الاثنانِ بقدومِ ابنهما «هِبةُ اللّه»، فابتسمَا له. وقالَ له أبُوه عليّ:

- فَعلتَ خَيرًا إذْ جئتَ الآنَ. اجلِسْ وكُلْ مَعَنَا.

وسحَبَ «هِبةَ اللّه» مَقعَدًا، وجلَسَ، ومَدَّ يَدَه إلى الطّعامِ وقالَ عليّ:

- خَبِّرني يا هِبةَ اللّهِ. ماذا أردتَ بقولِك لي في الصَّباحِ: أُريدُ أَن أكونَ شَمسًا؟

سأكونُ عالِمًا

راحَ هِبةُ اللّه يأكلُ طعامَه، ويَقولُ في الوقْتِ نَفسِه:

- مَا قصدتُه يا أَبي، هُو أن أكونَ مِثلَمَا الشَّمسُ. الشَّمسُ تُضيءُ الدُّنيا بنُورِها، وتدفئُها بحرارتِها، وتمنحُها الحَياةَ، أليسَ كَذلِك؟

فقالَ له عَلِيّ:

- بَلَى. لكنّني لَم أفهَمْ.

فقالَ لَهُ هِبةُ اللّه:

- ذلِك يَعني يَا أبي أنّني أُريدُ أن أكونَ عالِمًا كَبيرًا، أُضيءُ الدُّنيَا بالمَعرفةِ، مثلَ العلماءِ الكبارِ فِي بغدادَ.

عندئذٍ ضَحِكَ عَلِيٌّ مِن قَلبِه، وقالَ:

- أَضحكتَني يا هِبةَ اللّه، وأقلقْتَني عَليك.

وتوقّفَ عَلِيّ عَن الضَّحِكِ، وقالَ:

- في أيِّ علمٍ يا بُنَيّ تريدُ أن تَكونَ شَمسًا؟

فقالَ لَهُ هِبةُ اللّه:

- فِي كُلِّ علومِ عَصرِنا. مثلَ ابنِ سينا مثلاً. فَلاَ أُريدُ أن أكونَ صائِغًا مثلَك، ولاَ صيرفِيًّا مِثلَ عَمّي.

بَدَا القَلَقُ مرّةً أُخرَى عَلى وَجهِ عليّ وقالَ:

- ذَلِكَ يَعنِي أنَّكَ تُريدُ أن تَجوعَ يا بُنيّ، وأنْ تَتَقرَّبَ إلى الخُلفاءِ والأُمراءِ لتنالَ عَطاءَهم. وإن شاءُوا أعطَوْا، وإن شاءُوا مَنَعُوا، خاصّةً وأنّكَ يا بُنَيّ، لَسْتَ مُسلِمًا.

فقالَ لَه هِبةُ اللّه:

- سَأكونُ أيضًا طَبيبًا يَا أبي. فَلاَ تَقلَقْ عَلَيَّ فِي غَدِي. سَأُعالِجُ الأغنياءَ والفُقَراءَ فِي بَيتِي، وأبلغُ مرتبةَ العُلَماءِ والأطبّاءِ فِي بِيمارِسْتان (مُستشفى) من بيمارستاناتِ بغدادَ.

وراحَ عليّ يفكّرُ فيمَا قالَه هِبةُ اللّه، وقالتْ الأُمُّ لهِبةِ اللّه:

- وأينَ كُنتَ طَوالَ النّهارِ يا بنَيّ؟

مَدينة كل الأديان

طَوالَ النَّهارِ، كانَ هِبةُ اللهِ يَتجوّل في بغدادَ شرقيِّ دِجلة وغَربيِّتها، في الرُّصَافة، وفي الكرْخِ، على غيرِ هُدًى، وكأنَّه يكتشِفُ كلَّ مَا يَراهُ لأوَّلِ مرّة، في أعظَمِ مدنِ الدُّنيا في زَمانِه. يُشَاهِدُ قصورَ الخُلَفاءِ، والأُمَراءِ، والتُّجارِ الكِبارِ، والمَساجِدَ الإسْلامية الكُبرى والصُّغرى، والمدارسَ الأوليّة، والمدارسَ العُليا، ولقد انتبَه إلى نَفسِهِ، وهو يحدِّث نَفسَه، عِندَ «المدرسةِ النِّظاميةِ» قائلاً لِنفسه: «سأبدأُ بِكِ رحلتِي إلى الشَّمسِ». وعِندَ البيمارِستانِ العَضُديّ» قائلاً لنفسِه: «سأكونُ واحِدًا مِن أعظمِ أطبائك». ثم جَلس في خَميلة عَلى شاطئِ دِجلة، يَجتَرُّ (يَستعيد) حُلْمَه، ويرسِمُ لغايتِه الطَّريق.

حدَّث «هِبةُ اللّه» أبويْه برحلة يَومِه، وحدّثهما عَن حُلمِه، بَل حلمَيْه مَعًا: «المدرسةُ النّظامية العُليا»، و«البيرمستانُ العضدِي»، ثم قالَ لأبويْه:

– لاَ تَخافَا، فالتبحُّر في العلم، سيجعَلُ الكلُّ في المَدائنِ، والقُصورِ، والأكواخِ، بحاجة إليَّ. ولاَ تنسَيَا أن بينَ عُلماءِ بغدادَ، وغيرِها من مدائنِ المسْلمين، علماءٌ من كلّ الأجناسِ، وكلِّ الأدْيان.

لاَ تَحمل همّاً

كانَ الثّلاثةُ قَد انتهوْا مِن طَعامِهم. وصفّقتْ أمُّ هِبةُ اللّه، فأقبلتِ الخادِمةُ ورفعتْ صينيةَ الطّعامِ، وذهبتْ بها، ثم عادَتْ حاملةً كوبًا زجاجيّا لهبةِ اللّه، وقنّينةً (زُجاجة) بها سائلُ الجُوارْشَنَاتِ (سائلٌ مهضِّمٌ للطَّعام) ووضعتْهما على المِنضدَةِ الواطِئَةِ في سُكونٍ، وانصرفتْ. وكانَ «عليّ» شاردًا يفكّرُ ويتأمّلُ فيما قالَه لَه ابنُه «هِبةُ اللّه»، ويَبحَثُ لَه عَن أَقصَرِ الطُّرُقِ كِي يَبلُغَ «هبةُ اللّه» غايتَه، ليكونَ شَمسًا بَينَ العلماءِ الشُّموسِ. وقالَ عليّ لابنِه، وقَد بَدَتْ عليهِ السّعادة بأنَّ ابنَه، وواحِدًا مِن قَومِه، سَيَكونُ عالِمًا كَبيرًا، خَالد الذّكر، في عاصمةِ الدُّنيا ومَدينةِ النّور «بَغداد»:

– أيْ هبةَ اللّهِ. عمرُك الآنَ عشرُ سَنواتٍ. وأمامَك بِضعُ سنينَ حتّى تَبلُغَ الخامسةِ عشرةَ من عمرِك، كَيْ يُسمَحَ لك، بعدَ اختبارٍ شاقٍّ، بدُخول «المدرسةِ النّظامية» كطالب بها. هل سألتَ أحدًا عَن الطّريقِ العلميّ إلى هذهِ المدرسةِ؟

فقالَ لَهُ هبةُ اللّه:

– نعمْ. سألتُ. وأنَا بحاجةٍ إلى من يُعلمني، إلى درجةِ الإتّقانِ، أربعَ لغاتٍ: العربيةَ، والسّريانيةَ، واليونانيّةَ، والفارسيةَ، حتّى أدرس علومَ الأقدمينِ بلغاتِها، وعلومَ زمانِنا بالعربيةِ، وأتفادَى أخطاءَ المترجمينَ في ترجمةِ علومِ الأقدَمين، وأُقارنَ بين الأُصولِ والتّرجماتِ لهذهِ الأُصُولِ.

ونظرَ عليّ إلى ولدِه هبةِ اللّهِ بانبهار. أدرَك أن ابنَه يعرِف طريقَه وسَوفَ يحقّق حُلمَه الكَبيرَ، في أن يَكونَ شَمسًا، ويخلّدَ اسمَه، واسمَ أبيهِ وجدّه معَه. وعندئذٍ قالَ لَه:

– لا تحمل هَمّا لنفقاتِ المعلّمين والكتبِ يا هبةَ اللّه. ولَك عِندِي كُنيةٌ (صِفة تَبدأ بلفظ أبُو، أو: إبن) ستحملُها مع اسمِك، عندما تُجازُ في المدرسةِ النّظامية. مَتَى يا بُنَيّ؟ اللّهُ وَحدَه يعلَم.

أبُو البَركات

عامَ خمسمائةٍ الهجري، ألفٍ ومائةٍ وستةٍ الميلاديّ، كَان هبةُ اللّه قَد بَلَغ من العمرِ عشرينَ سنةً. حين اجتازَ اختباراتِ العُلماء لَهُ بالمدرسةِ النّظاميةِ، في أربعِ لغاتٍ، وفي علومِ المنطقِ، والفَلسفةِ، والرّياضياتِ، والطّبيعياتِ. وفي حَفلٍ مَهيب، حَضرَه أساتذةُ هذهِ المدرسةِ، وطلابُها ومثقّفُو بغداد، وعددٌ من الأمراءِ والأعيانِ، مُنحَ هبةُ اللّه عددًا من الإجازَات العلميةِ، في اللغاتِ الأربَعِ، والعلومِ الأربعةِ: المنطق، والفلسفةِ، والطّبيعيات، والرّياضيات. وحين بدأ الحفلُ ينفضُّ ، تقدّمَ عليُّ بنُ ملكا من ابنِه وعانَقَه، وهنّأهُ، وقالَ لَه:

– اليومَ نِلتَ فَوزًا عَظيمًا يا بُنَيّ.

فقال له هبةُ اللّه:

– الفوزُ العَظيمُ لَم يَأتِ بعدُ يَا أبِي. فغايَتِي الآنَ هي أن أكونَ طَبيبًا مُعالجًا، وطَبيبًا شَهيرًا، واسعَ الثَّراءِ.

وسكتَ هبةُ اللّهِ لحظةً، ثم قالَ لأبيه:

- ما الكُنيةُ التي كنتَ تدخّرُها لِي؟

عندئذٍ ضحِك عليٌّ وقالَ:

- أبُو البَركات. أبُو البركات يا هِبةَ اللّه بنَ علِيّ بنَ ملَكا. هَيّا بِنا نَعودُ إلى البيتِ، فاللّيلةُ سَيكونُ لكَ حديقةِ البَيتِ احتفالٌ آخرُ، يحضرُه صَفْوة حيِّنا في مدينةِ الكَرْخ.

لِذلك قِصة

وأثناءَ الطّريقِ، راحَ هِبةُ اللّه يتذكّرُ أحداثَ ما مَضَى من عمرِه. فقبلَ عامٍ واحدٍ اجتاحتِ السُّيولُ مدينةَ بغداد، وقبلَ خمسةِ أعوام، تُوُفِّيَ الطَّبيبُ «أبُو الحسين سعيد بن هِبةُ اللّه ابن الحُسين» شيخُ الأطباءِ في البيمارستانِ العضدِي، وشَعَرَ هِبةُ اللّه بحزنٍ شَديد، تحدّرَتْ مَعَه الدُّموع مِن عينَيْه، ورأَى «عليّ» الدُّموعَ تتساقَطُ عَلى خديْ ولدِه، فتوقَّفَ في الطَّريقِ، وقالَ:

- أهيَ دُمُوعُ الفَرَحِ يَا أبَا البركات؟

فقالَ لَهُ هِبةُ اللّه، وهو يُكَفْكِفُ (يجفّف) دموعَه:

- لا يا أبِي، لكنّني تذكّرتُ أستاذًا لِي، عَزيزًا عليّ، هُوَ: «هِبةُ اللّهِ بنُ الحسينِ» فعلَى يديْه قرأتُ كُتبَ الطبيبيْن اليونانيين: جالِينوس، وأبقرَاط، وقرأتُ عَليه كِتابَه: «المغني في الطّبّ»، في البيمارستانِ العضُدِيّ، وقَد ودعتُه وودّعنا قبلَ أن يجيزَني في الطّبّ.

فقال لَهُ أبُوه بدهشَة:

- في البيمارستانِ العَضُدِيّ. كيفَ يا بنيّ، وأنتَ لم تلتحقْ بعدُ بالبيمارستانِ العَضُدِي.

فقال له هِبَةُ اللّهِ:

- لِذلِك قِصّةٌ يا أبِي، سُوفَ أحكِيها لَكَ غدًا، مع الضّحَى، فقد قارَبْنا أن نَصِلَ إلى البيْت.

فِي الدّهليز

مَع الضُّحَى، انفردَ عليّ بنُ ملكا بابنِه هبةِ اللّه، في بُستانِ البيْت. وانشغلتْ أمّه في الإشرافِ على الخادِمات لإزالةِ آثارِ حفلِ اللّيل، من البُسْتان، ومن قاعةِ الضّيافة. وقالَ هِبةُ اللّه لأبيه:

- قبلَ تسعةَ أعوامٍ يا أبي، وأنا أدرُسُ اللُّغاتِ، علَى معلمِيّ، شغلَني هَمُّ دراسةِ الطِّبِّ، عَلى يدِ شيخِ الأطباءِ في البِيمارستانِ العَضُدِيّ. كان هذا الشَّيخُ يعقدُ آخرَ كلِّ نهارٍ مجلسًا لطلابِ الطبِّ بالبيمارستانِ، وكان وقتُ الفَراغِ طَويلاً أمامِي، بعدَ أن تنتَهِي دُروسُ اللُّغاتِ، ولَم أكُنْ قد التحقتُ بعدُ بالمدرسةِ النِّظاميةِ. وقرَّرتُ أن أذهبَ إلى البِيمارستانِ. وأحضرَ دروسَهُ كمستمعٍ، مع طلاَّبِ الطِّبِّ في البيمارستانِ.

وحينَ همَمْتُ بدخولِ قاعةِ الدَّرسِ، منَعَني حاجِبُ هبةِ اللّهِ ابنِ الحُسَيْنِ، وسألَني عَن ديني، فأخبرتُه أنّني يَهوديّ من أهلِ الكتابِ، فقالَ لي: إن الأستاذَ الذي تَنشُدُه، لا يَقبلُ أحدًا من الطُّلاَّبِ في مَجلسه إلاّ إذا كان مُسلمًا.

وسكتَ هبةُ اللّه، وأبُوه ينظرُ إليه، ثم قالَ:

- عندئذٍ نفحتُ (أعطيت) حاجبَ الطَّبيبِ دينارًا، فأشفقَ عليَّ، وصَحِبَنِي إلى دهليزٍ أجلسُ فيه، وأسمعُ قراءَةَ القارئين، وأسئلةَ السَّائلين، وأجوبَةَ الطَّبيبِ. ظلَلْت علَى هذهِ الحالِ، أجلِسُ في الدّهليزِ، أرَى، ولا أُرَى، وأسْمع ولاَ أُحدِثُ صوتًا أيَّ صُوتٍ، وأحفظُ في نَفسِي كُلَّما أسمعُه، وفي يَدِي كتابٌ لجالِينوس أولأبُقراط، مثل الذي يقرأُ فيهِ أحَدُ الطّلابِ. ومرَّ عامٌ يا أبي ، حتّى كان يَومٌ لا أنْسَاه. عجزَ كلُّ الطُّلاَّبِ، في بحثِ مسألةٍ من

مسائلِ الطّبِّ لجالينوس، وكانَ حلّها حاضرًا في رَأسِي. ولَمْ أدْرِ بنفسِي، إلاّ وأنَا بداخلِ القاعةِ أمامَ شيخِ الأطباءِ. قفزتُ مِن النّافذة، إلى مجلسِ الشّيخِ، فَبُهِتَ الحاضرُون لَحظةً، وقبلَ أن يحدُثَ أيُّ ردٍّ فعلٍ من أحد، قلتُ لشيخِ الأطباءِ: يا سيّدِي، يا مولاَي، أنا أعرِفُ حلَّ هذهِ المسألة، فَقَد تَحدّث عَنها «جالِينُوس» في كتابٍ آخر له، ورُحتُ أذكُر له ما قالَه جالينوس في كتابِه الآخرِ هَذا.

وسَكَتَ هبةُ اللّه لحظةً، استجمعَ فيها أنفاسَه، ثم قالَ لأبيهِ:

– أُعجِبَ شَيخُ الأطباءِ بذكائِي، عَلى صِغَرِ سِنِّي، وحدَّثْتُه عن قِصَّتِي في سَماعِ دُروسِه بالدّهليز، وعَن ديني الذي حالَ بَيني وبينَ الجُلوسِ إليه كمستمعٍ. وعندئذٍ قالَ شيخُ الأطباءِ، بصدرٍ رَحْبٍ، ولا أنسَى ما قالَه لطلاّبِه: مَن يكونُ بهذَا الحِرْصِ في طَلَبِ العِلمِ، وذلِكَ الذّكاءِ، لا نستحلُّ أن نَمنَعَه من العِلْم.

وابتَسَمَ هبةُ اللّه ابتسامةً حَزِينةً، وقالَ:

– وقَبِلَني مُستَمِعًا في مجلسِه نَحوًا مِن ثلاثةِ أعوام، إلى أن ودّع الدُّنيا. يَرحَمُه اللّه. كانَ دُونَ الخامسةِ والخَمسين مِن العُمرِ. وكانَ ذَا وَجهٍ صَبُوح، ولحيةٍ بيضاءَ، حسنةِ التّهذيب.

الحلُم يتحقّق

انتظمَ هِبةُ اللّه طالبًا في «البيمارستان العضدي»، يحضرُ دُروسَ الأطباءِ والصّيادلةِ، آخرَ النّهارِ، ويصحَبُ الأطباءَ المعالجين في جَوْلتِهم أوّلَ النّهارِ بين أسرّةِ المَرضَى، في أقسامِ البيمارستانِ، ويَشهَدُ مِن قُرْبٍ الجِراحاتِ التي يُجريها الأطباءُ. وحين يعودُ إلى بَيتِ أهلِه مع اللّيلِ، يعكفُ على قراءاتِه الحرّةِ الأثيرةِ (المفضّلة)، في كُتُبِ المنطقِ، والفلسفةِ، والإلهياتِ، والطّبيعياتِ، اليونانيةِ، والفارسيةِ، والعربيةِ، والهنديّةِ.

وفى عامِه الدّراسيِّ الأخيرِ بالبيمارستان، سُمِح لَه على سَبيلِ التّدريبِ، وتَحتَ إشرافِ الأطباءِ، كلٌّ فِي تَخَصُّصِه، بتشخيصِ الأمراضِ، ووصْفِ الدّوَاءِ وإجراءِ العمليّاتِ الجراحيّةِ الأوليّةِ. ولم يَكَدْ ذلكَ العامُ يَنتَهِي، حتّى مُنِح هبةُ اللّه بنُ مَلَكا الإجازَةَ في مُمارسةِ الطّبِّ، ولتفوّقِه في التّشخيصِ والعِلاجِ، اختُيِر هِبةُ اللّه مَع المُختارِين من زملائِه النّابهين، ليكونَ طَبيبًا بالبيمارستان العَضُدِيّ، وهُو شَرَفٌ طبيٌّ لاَ يَنالُه الكَثيرون، وكانَ رَئيسُ أطباءِ البيمارستانِ آنذاكَ هُو هِبةُ اللّه بنُ التِّلميذ. وصارَ هِبةُ اللّه بنُ مَلَكا صَدِيقًا لابنِ التّلميذِ، وصَدِيقًا لِصديقِ صَديقِه «هِبَةُ اللّهِ

البَديعُ الإسْطرلابيّ» صانعِ الأُسْطُرْلاَبَات (آلة فَلَكِيّة) الكَبير، لِمراصدَ بغدادَ والمدائنِ الإسلاميةِ الأُخْرى، وكانَ هِبةُ اللهِ بنُ مَلَكا قد أَتمَّ عامَه الخامسَ والعِشْرين.

وفي بغدادَ، تَزَوَّجَ أبُو البركات هِبةُ اللّه، واستأجَر أبُوه له ولزوجِهِ دارَيْن، أحداَهما قريبةٌ مِن السّوق ومَحَلّةِ (حَيّ) اليَهودِ بالكَرْخ، يسكنُها هُو وزوجُه ويستقبلُ فيها الفقراءَ المَرضَى، الذين يَأْتُون طَلَبًا للعلاجِ، والأُخْرى في قلبِ الرُّصافة، وسطَ أحياءِ الأغنياءِ، وكانَت دارًا مُخصّصا لعلاجِ الأغنياءِ مِنَ التّجارِ والأعيانِ. وفى هاتَيْن الدّارَيْن، كانَتِ الأبوابُ مَفتوحةً للمَرْضَى، في أوقاتٍ مَعْلُومَةٍ، عَصرَ كُلِّ يومٍ في الكَرْخ، وَصَباحَ كلِّ يَومٍ في الرُّصَافة. وحِينَ يفرَغ النّاسُ من صَلاةِ العشَاء، كانَ تلاميذُه المُعجَبُون بنبوغِه، يَأْتون إليه في دارِه، يحاورُهم ويحاورُونه في مَسائلَ شَتّى مِن العلْمِ. وفيمَا بين الصَّباحِ والعَصْر، كانَ هِبةُ اللّه يَزورُ المَرضَى في البيمارستانِ العضديِ.

كُل نَارِنجة

وفِي عيادَةِ دارِه بالكرخ، جاءَ إليه رجلٌ مُتوسِّطُ الحالِ مِن أهلِ السّوقِ، يسعلِ سُعالاً مُتقطّعًا. وقالَ السّاعلُ لهِبةِ اللّه:

- لِي أيّامٌ وأنا على هذه الحال. أسعل في اللّيلِ والنَّهارِ. ولم ينجحْ مَعي دَواءٌ.

فطلبَ هِبةُ اللّهِ مِن السّاعل أن يَبصُق فِي مِنديلٍ، ويَطوي المِنديلَ عَلى ما فيه. وجلَس الرَّجلُ يَنتَظِرُ، وهُو يَسعُل سُعالاً مُتقطِّعًا، وانشغلَ هِبةُ اللّه عَنهُ بمرضَى سوَاه، وبعدَ ساعةٍ فتحَ هِبةُ اللّهِ مِنديلَ السَّاعِل، فلم يَرَ بِه أثَرًا يُذكر. وعندئذٍ سألَ هِبةُ اللّه مَريضَه، قالَ:

- أخبِرْنِي، ماذا أكلتَ في اليومِ الذِي سعَلتَ فيه؟ حاوِلْ أن تَتذكَّرَ.

فقال له السّاعلُ بعدَ لحظةٍ:

- تذكَّرتُ. أكلتُ نارِنْجةً، أعجبَنِي طعمُها اللاّذِعِ. وبعدَ ساعةٍ ذهبتُ إلى فراشِي ، وأخذتُ في السُّعّال.

وأشارَ هِبةُ اللّه، عبرَ نافذةِ الغرفةِ، إلى شجرةِ نَارنْج، وقالَ للسّاعل:

– اذهبْ إلى شجرةِ النّارنجِ هذه، في بُستانِ الدّارِ، وهاتِ نارنجةً وكُلْها، ثم عُدْ إليّ في الغَدِ.

وفي الغَدِ، عادَ السّاعِلُ عصراً إلى هبةِ اللّه، وهو لا يَزالُ يَسعل، وقالَ:

– يا أبَا البَركات. وصفْتَ لِي نَارنْجة، زادَتْ في سُعالِي، وهي سببُ بليّتي.

فقالَ لَه هبةُ اللّه ضاحِكًا:

– اصبرْ يا رجُل، اذهبْ وخذْ نارنجةً أخرى. وكُلْها، وعُدْ إليَّ عصرَ غدٍ.

وفي الغدِ التّالي، عادَ السّاعلُ إلى هبة اللّه، وهُوَ لا يَزالُ يَسْعَل، وقالَ:

– يا سيّدي، لم يفارقْني السُّعال، بل زادَ عليَّ واشتَدَّ.

فقالَ لَهُ هِبةُ اللّه:

– لا تَيأَس، اذهَبْ وكُلْ نارنجةً أُخْرى، وعُدْ إليَّ غَداً.

سرّ النّارنجة

وفي الغدِ عادَ السّاعل إلى هبةِ اللّه، وقد توَقّفَ سُعاله، والتمعَتْ عينَاه بسعادةٍ، وبانَ (ظهر) بِشْرُ السَّعادةِ علَى وَجهِه، وقَال:

- شفيتُ والحَمدُ للّه، سعَلتُ في اللّيلِ سَعْلةً واحدة، أخرجَتْ كلَّ ما في صَدري من بلْغم، ونِمْتُ مُستَريحًا والحَمدُ للّه.

فقالَ لَه هبةُ اللّه:

-الحَمدُ للّه، واحذَرْ. لاَ تَأكُلْ نارِنجًا مَرّةً أُخْرى، وادفعْ ما تقدرُ عَليه مِن أجرِ العِلاجِ، لمساعدِي خارجَ هذهِ الغُرفَة.

وإثرَ خُروجِ الرَّجُلِ، التفتَ هِبةُ اللّه إلى تِلميذِه المُلازمِ لَه «ابن الدهّان» وقالَ لَه مفسّرًا عِلاجَه للسّاعل:

- حينَ فتحتُ المنديلَ لَم أرَ أثَرًا به، يُشيرُ إلى أنَّ بلغَمه مِن الرِّئة،وقدرتُ إن مَا به هُو مِنْ أثَرِ طعامٍ مَا بقصبةِ صَدرِه، وأنَّ أكلَه النارنجَ قَد أثارَ مَا علَى هذهِ القصبةِ من بلغمٍ ملتصِق، ولذلك أمرتُه بمعاودةِ أكلِ النارنجِ. وجلاَ النَّارنجُ قَصبةَ صَدرِه سَعلةً بعدَ سَعْلة، ولَو

أنّهُ أكلَ النارنجَ مَرّةً أُخْرى، بعدَ شفائِه، لأصابَتْ قصَبَةُ صَدرِه قَرْحَة، عَسيرةُ العِلاجِ.

الدنّ سيقع

وفي عيّادةِ هبةِ اللّه الطّبيب بالكَرْخ، فُوجِئَ هبةُ اللّه بدُخولِ رجلٍ تاجرٍ، وبصحبتِه عددٌ مِن أعوانِه، وبينَهم كانَ شابٌّ سَليمُ الصّحة، لكنّه يَرفعُ كفيْه أعلى رَأسِه، كمن يسندُ شَيئًا يحذرُ أن يَقَعَ، وهو يهذِي مُردِّدًا:

- ابتعِدُوا عنّي، ابتَعِدُوا عنّي، الدِّنُّ (وِعاء من الخزف) سيقَع، الدِّنُّ سيَقَع.

وشاءَ هبةُ اللّه أن يَختبِرَ مَدَى وَعي ذَلِكَ الشّاب، فعبرَ بِه بابًا مُنخَفِضًا يؤدّي إلى غُرفَةٍ أُخرَى، وراقبَ الشابَّ وهو يتقاصَرُ بطولِه، حتّى لا يَصطَدِمُ الدّنُّ الوهْميّ فوقَ رَأسِه، بأعلى البابِ، وقالَ أبُو الشابّ لهِبةِ اللّه:

- أنَا أبُوه، ولا أدري ماذَا أفعلُ مَعَه، إنّه لا يَنامُ، وإذا نامَ جالِسًا، وإذا مَشَى ورَأسُه مرفُوع، وإذا جَلَس ظَلَّ رَأسُه مُنتَصبًا بيْنَ كتِفيْه، ويأكلُ

طَعامَه وهُو عَلى هذهِ الحالِ، ولا أعرِفُ كَيفَ يَنام، دُونَ أن يَسقُطَ رَأسُه عَلى صَدرِه، وهو جالِس، وَله عَلى ذَلكَ الحالِ شُهُور.

ومَدَّ هِبةُ اللّه يدَه نَحوَ رَأسِ الشّابِّ المَوهُوم، ففزِع مِنه، وتَراجعَ إلى الخَلفِ، قائلاً:

- ابتَعِدْ عَنّي، ابتَعِدْ عَنّي، الدِّنُّ سيقع. الدِّنُّ سَيَقع.

عِلاج بِالإيحاء

وفَكَّرَ هِبةُ اللّه أنَّ مَريضَه هذا لَن يَبرَأَ مِن وَهمِهِ إلاّ بوهمٍ مِثلِه، أكبرَ مِنه. وقالَ لوالدِ الشّابِّ:

- سَأخرجُ قَليلاً إلى البُستَان. وحينَ أَدعوكَ ومَنْ مَعَك، تعالَوْا، ومعَك ابنُك هذَا.

وغادَرَ هِبةُ اللّه الدّارَ إلى البُستانِ، ودَعَا إليه بخادمَيه، واتَّفقَ مَعَهُما عَلى أمرٍ. وانتظرَ قَليلاً حتّى نَفّذَ كُلٌّ مِنهُما ما طَلَبَه مِنه. ثُمَّ أشارَ عبرَ النّافذَة إلى والدِ الشّابِّ ومَن مَعَه، ليأتُوا إليه، وضَحِكَ هِبةُ اللّه بينَه وبينَ نَفسِه، وهو يَرى الشّابَ يَسيرُ مَعَ أبيه ومَن مَعَه، وكفّاه بجانِبَيْ رَأسِه، وهو يردِّد:

- احذرُوا، احترِسُوا، الدّنّ، الدّنّ، الدّنّ سيَقع.

وَحين صارُوا مع هِبةِ اللّه في البُستانِ، تقدّم هِبةُ اللّه من الشّابِ وقالَ لَه، محدّثًا إياه، لِيشغله عَن أمرِه:

- أينَ هَذا الدِّنّ؟إنّني لا أرَاه.

فقالَ لَه الشّابُّ ساخِرًا:

- أنَا فَقَطْ أرَاه، أحِسُّ بِه فوقَ رَأسِي، المَلاكُ وضعَه فَوقَ رَأسِي.

فَقالَ لَه هِبةُ اللّه:

- وماذا لَو جاءَ هذا المَلاكُ الآنَ، وأراحَكَ مِن هَذَا الدِّنّ.

وقبلَ أن يَنطقَ الشّابُّ بحرْفٍ، تَقَدَّمَ خادمٌ مِن الشّابِّ، وهو يَحملُ هِراوةً (عَصا خشبِية غَليظة)، وطوّح بِها فوقَ رَأسِ الشّابِّ قائلاً:

- سأريحُكَ مِن هذَا الدّنّ.

وفِي اللَّحظةِ نَفسِها، سقطَ دنٌّ خَزَفِيّ ضَخْمٌ مِن فَوقِ دارِ هِبةِ اللّه، دَفَعَ بِه خادمُه الآخَرُ، فسقطَ فِي البُستانِ بالقُربِ مِنَ الشّابِّ، في جَلَبةٍ (ضَجّة) عَظيمةٍ، وتَكَسَّرَ قِطَعًا صَغيرةً، وذُهِلَ الشّابُّ مِمّا حدَث، وقبلَ أن يَصرُخَ أو يَبكي، قالَ لَهُ هِبةُ اللّه:

- لَقَد جاءَ المَلاكُ وأَراحَكَ مِن هَذَا الدّنّ.

وعندئذٍ ضَحِكَ الشّابُّ مردّدًا:

- الحَمدُ للّه. الحَمدُ للّه. الآنَ أَستَطيعُ أن أنامَ.

وانصرَفَ والِدُ الشّابِّ هو ومَن مَعَه، وهو يَقولُ:

- ستعرِفُ بغدادُ كلّها اليومَ يا أبَا البَركات، أنَّ طبّك أقْوَى مِن طبِّ كُلِّ الأطباءِ في بغدَادَ.

لماذا؟

وحينَ بَلَغَ أبُو البَركات هبة اللّه مِنَ العُمرِ ثَلاثينَ سَنَةً، كانَت شُهرَته كَطبيبٍ معالِجٍ، قَد مَلأَتْ أرجاءَ بغدادَ، وسرَت هذِه الشُّهرةُ إلى ما حَولَ العِراق، فِي بلادِ فارِسَ والشّامِ. وصارَ كلّ قادمٍ إلى بغدادَ للعلاجِ يتوجّه من فَورِه إلى هبةِ اللّه طالبًا الشّفاءَ على يديْه، في عيادَتِه بالكَرخ، أو في عيادته بالرُّصافَة أو في البيمارستانِ العَضُدي، إن كانَ مِنَ الفُقَراء، ولَم يَكُنْ ينافسه في شُهرَتِه كطبيبٍ مُعالجٍ سِوَى الطّبيبِ هبةِ اللّه ابنِ التِّلميذِ، وحينَ التقى الطّبيبانِ يَومًا في طَريقٍ مِن طُرق بَغدادَ، قالَ ابنُ التِّلميذِ لأَبِي البَركات:

- أخبرْنِي لِمَ يُقبِلُ النّاسُ عليكَ للعلاجِ أكثَرَ مِنّي، وأنتَ رَجُلٌ شَديدُ الكِبرياء، وأنا رجُلٌ شَديدُ التّواضُعِ؟

فابتسمَ هبةُ اللّه، وقالَ لابنِ التِّلميذِ:

- سَلِ النّاسَ يَا صَديقِي، لِمَ؟ ولَكِن إذا شِئتَ ذَكَرتُ لَكَ السّبَبَ الأوّلَ في نَجاحِي كَطبيبٍ مُعالِجٍ، فيما لَم تنجحْ أنتَ فِي عِلاجِه.

وسَكَتَ هبةُ اللّه لَحظةً، ثُمَّ قَال مُبتَسِمًا بمودّةٍ لابنِ التِّلميذِ:

- لأنّني يَا صديقي مُشتَغِلٌ مَعَ الطِّبِّ بالفلسفةِ، وبالمَنطقِ، وأُقَدِّرُ النّتائِجَ فِي التّشخيصِ والعِلاجِ حَسَبَ المُقدِّماتِ، وأربطُ المسبّباتِ بالأسبابِ.

قِصة مَدينة

كانت الخِلافةُ العَبّاسيةُ، في القَرنِ السّادسِ الهجريِّ، الثّاني عشرَ الميلاديِّ، لا تزالُ خاضِعَةً مُنذُ وُلِدَ هبةُ اللّه لسيطرةِ الدّولة السّلجُوقيّة، وكانَ السُّلطانُ السّلجُوقي محمّد، قَد تولّى السّلطنةَ بَعدَ وَفاة أَبيه مَحمود بن ملكشاه الثّاني، وفِي زيارةٍ للسُّلطانِ السّلجوقِي مُحمّد لبغدادَ، اختارَ

هذا السُّلطانُ أبَا البَركات هبَةَ اللّه بنَ مَلَكا، ليكونَ طَبيبًا له ولِجَيْشِه، لِيَصحَبَه مَعَه حيثُمَا أقامَ فِي بَلَدٍ،أو غَزَا بَلَدًا، ولَم يَستَطِعْ هِبَةُ اللّه أنْ يَعتَذِرَ لِهذَا السُّلطان، فَهُوَ صاحِبُ الأمرِ والنَّهي في دولةِ الخلافةِ، ولَيس للخليفةِ من السُّلطة سِوَى اسمِها، وغادرَ هِبةُ اللّه بغدادَ مَعَ السُّلطانِ، تارِكًا بِها زَوجةً لَه، وثَلاثَ بَنات، ودخَل مَعَه مَدينةَ «هَمَذَان». وكانَ بِها معسكرٌ عَظيمٌ للجيشِ.

كانت مَدينةُ هَمَذان مَدينةً كُبرى، علَى سَفحِ جَبَلِ «الفَنْد» غَربيّ إيران، وكانَ اسمُها عِندَ الآشوريين هُو «هَجمَاتَاتا» وعِندَ الإغريق هُو «أكبَاتَان» وكانَتْ هَذِه المدينةُ قاعِدة (عاصمة) مملكةِ «ميديا» القَديمة، فِي سالِف الزَّمانِ، وكانت مِنطقةُ «هَمَذان» الجبليّة عامرةً بالآثارِ البرونزيّة، التي تُنسَبُ إلى ما قَبلَ الإسلامِ بعدةِ قُرون، وقال السُّلطانُ السّلجوقي محمّد لِهبةِ اللّه، وهُمَا يجتازَان أسوارَ هَمَذان:

– هَذِه المدينة هِي أكبَرُ مُدن الجبَال، وهِي مَدينةُ التُّجار، والصيارفة، والصاغة، وسَوفَ تَرى كَثرةَ مَا بها مِن جَداوِلَ وعُيُون، وقَد فَتَحها العَربُ عُنوةً سَنةَ أربَعَ وعشرينَ هجريّة، بَعدَ قِتالٍ شَديد، ومِن قبلِ العَربِ فَتَحَها

المَلِكُ «بَختُنصرّ» (الآشوري) ثُمَّ فَتَحَها مِن بَعدِه الملكُ الفارسِيّ «دارا» وعمّرها، وشيَّد حَولَها حِصنًا مَنيعًا، أجهَدَ العربَ فِي فتحِها.

وضَحِكَ السُّلطانُ، وقالَ لِهبةِ اللّه:

– وسوفَ يَطيبُ لَكَ المقامُ بِها، مَعِي، يا هبةَ اللّه، ولا تَنزَعِج لِما تَراهُ حَولَكَ الآنَ مِن بَردٍ قاسٍ، ومَطَرٍ شَديد، وسُحُبٌ دَاكِنة (شَديد السَّوادِ)، فَلَسوفَ يَأتِي عَلَيكَ بِها رَبيعٌ جَميل، وتَقضِي بِها صَيفًا طَيِّبًا، وتَرى كَثرة مَا بِها مِن خيراتٍ في الخَريفِ.

دُحاس الأَصابع

كُلَّ صَباحٍ فِي هَمَذَان، كانَ هِبةُ اللّه يذهَبُ بصحبةِ حارسيْن من حرّاسِ السُّلطانِ، إلى معسكرِ الجَيْش، لِيُعالِجَ في خَيمةٍ طِبِّيّةٍ بِها مَن يَكونُ مَريضًا مِن جُنْدِ الجَيشِ، وبصحبَتِه عَدَدٌ مِن تلاميذِه، اختارُوا صحبتَه في إقامَتِه مَعَ السُّلطانِ.

وذاتَ نَهارٍ، كانَ هِبةُ اللّه جَالِسًا بالخيمةِ، مَع عددٍ آخرَ من أطباءِ الجَيْشِ وبينهم موقِد تَتَوهَّج بِه جَمَراتُ فَحْم حَجَرِيّ، يَصعَدُ دخانُها فِي

أنبوب يَخترِقُ سَقْفَ الخيمَة. وأدخلَ الحرّاسُ إلى الخيمة جُنديًا تَورَّمَ إصبعُه مِن داحسٍ (وَرمٍ) أصابَ بَنانَ الإصبعِ، ورأى هبةُ اللّه الوَرَمَ وقَد تَسرَّبَ مِن بنانِ الإصبعِ إلى سَلاميّته (العظَمة الوسطى بالإصبع) ورأى الصَّديدَ يَسيلُ من جُرحِ البَنانِ. وَفي الحالِ، أعدّ هبةُ اللّه المخدّر، وسكبَه علَى الإصبعِ، وانتظرَ حتّى سَرى فيه الخدَر، وبتَرَ عقلتَيِ الإصبع الأماميّتَين، رغمَ اعتراضِ الأطباءِ، قائلاً:

– إذا لَم يُبتَرْ ما تَورَّمَ، سَرى الورَمُ فِي الكَفّ، والذِّراعِ كلّه ، ويَموتُ مَحمومًا.

وكوَى هبةُ اللّه مَوضعَ البَترِ، وسكَبَ علَيه سائِلاً يَجعلُ أثَرَ البترِ يتقلّص على نَفسه، ويلتئمُ بسرعة. لكنّ الأطباءَ شكَوْا للسُّلطانِ هبةَ اللّه، وقالُوا له:

يَدُ الجُنديّ لَن تكونَ صالحةً للقبضِ علَى سَيفٍ أو رُمحٍ، وهبةُ اللّه قَد جارَ في العلاجِ. فقالَ لَهُم هبةُ اللّه أمامَ السُّلطانِ:

– افعلُوا إذَنْ مَعَ الجنودِ مَا تشاءُون. فقَد انتشرَتِ الإصابةُ بدُحاسِ الأصابعِ بين الجُنود. وقَد أمرتُ بسكبِ الكُحولِ علَى أيِّ أصبعٍ يُصابُ بوخزَةٍ أو جُرحٍ، قَبلَ أن يتورّمَ مَوضعُ الوَخزِ.

وراحَ الأطباءُ يُعالِجونَ في الخيمةِ الطِّبية كلّ مَن دُوحِسَ إصبعُه وتورّمَ، بالدّواءِ، وراحَ هؤلاءِ المَرضَى يموتُون من سرَيانِ الورَمِ، والحُمَّى، مَريضًا بَعدَ مَريضٍ. وعندئذٍ قالَ السُّلطانُ للأطباءِ:

– الأمرُ كُلُّه مِنَ الآنَ لهبةِ اللّه. وعليكُم أن تُعاونُوه، وأن تُنَفّذُوا ما يطلبُه مِنكم. فهو أدرَى بالطِّبِّ مِن أيِّ طَبيبٍ.

آمنت بالإسلام

وذاتَ ليلةٍ، كان السُّلطانُ السَّلجوقيّ جالسًا في قاعةِ عَرشِهِ بهمذَان، وحولَه كانَ الوزراءُ، وقادةُ الجَيشِ، وأعيانُ هَمَذان، وأقبلَ علَى القاعةِ هِبةُ اللّه، رافعًا رَأسَه كعادَتِه بكبرياءٍ، وثقةٍ بنفسِه وبعلمِه، فهبَّ كلُّ الجالسينَ وُقوفًا تَحيةً لقُدومِه، عدَا قاضِي القُضاة. وشعَرَ هبةُ اللّه بالحَرَجِ، فقاضِي القُضاة لَم يَقِفْ لَه مَع الواقفين، لأنَّه ذمّيٌّ مِن أهلِ الكِتاب، فتوجَّه هِبةُ اللّهِ في الحالِ بالخطابِ إلى السُّلطانِ، قالَ:

– إن كانَ القاضِي لَم يوافِقِ الجَماعة، لكونِه يَرَى أنَّني علَى غيرِ مِلَّتِه، فَأنَا أُسلمُ بين يَدَيْ مُولاَنا، ولاَ أَترُك قاضِيَ الجَماعةِ، ينتقِصُني لعدَمِ إسلامِي.

عندئذٍ كبَّرَ الحاضِرُون، وكانَ قاضِي القُضاةِ أوّلَ مَن صافَح هبةَ اللّه مُهَنِّئًا إيّاهُ بإسلامِه، وعانَقه. وفِي هذِه اللَّيلة أجلَسه السُّلطانُ إلى جانبِه اعتزازًا بدخولِ عالمٍ مثلِه في الإسْلام، وقال السُّلطانُ لكلّ الجالِسين:

– غَدًا سنَرحلُ معًا إلى بلادِ الجبلِ، لنُواصلَ بجيوشِنا تَحريرَ البِلادِ.

والتَفتَ السُّلطانُ إلى هِبةِ اللّه، وقالَ لَه:

– وسنصحبُك مَعَنَا يَا هِبةَ اللّه، فَسأكونُ أنَا والجَيشُ بحاجةٍ إليْك.

أَحزْان بِلاَ دُموع

كانَ السُّلطانُ يصحَبُ معَه زَوجَتَه، وكانَت تَشكُو مِن قَبلُ مِن صُدَاعٍ يتردّد عَليْها بَينَ حينٍ وآخر. وفِي بلادِ الجبل (شرقي تُركيَا الآن) عصفَ الصُّداعُ برأسِ زوجةِ السُّلطانِ، وفشِلَ طَبيبُ الحَريم الخاصّ في عِلاجِها، فأمرَ السُّلطانُ هِبةَ اللّه أن يُباشِرَ العِلاجَ بنفسِه، وفَحَصَ هِبةُ اللّه زَوجةَ السُّلطانِ فَحصًا دَقيقًا، محدّقًا في مُلتحمةِ العينَيْن، وراءَ الجَفنين، وفِي حلقِها وفَمِها، وتأمّل في عيناتٍ مِن دَمِها وبَولِها، وأدرَكَ أنَّ زَوجَةَ السُّلطانِ لَن تَعيشَ طَويلاً، فَقَد أُصيبَتْ بورمٍ خَبيثٍ في مُخِّها، رَاحَ يَنمُو، ويَأكُل مَا بِه مِن خَلايَا. وأوشَكَ هبةُ اللّه أَن يُصارِحَ السُّلطانَ بيأسِه مِن عِلاجِها، لَكنَّه خَشِيَ ثَورةَ السُّلطانِ وغَضَبَه، فَهُوَ مُتعلّق تعلُّقًا شَديدًا بهذِهِ الزَّوجةِ، ولا يَطيقُ لَها فِراقًا فِي إقامةٍ أَو سَفَرٍ.

واستيقظَ هبةُ اللّه ذاتَ صَباحٍ، وهو جالِسٌ على مَقعَدٍ خارجَ بابِها، يغالِبُ السَّهرَ والنَّوْمَ معًا. أيقظتْه أصواتُ النَّائحاتِ لوفاةِ زَوجةِ السُّلطانِ.

وجَزِعَ السُّلطانُ على زَوجَته جزعًا شَديداً، وعجزَ عَن البُكاء، وحين رَأى هبةُ اللّه ذَلكَ الجزَع على وَجه السُّلطان، خافَ على نَفسِه من القَتلِ، وفُوجِئَ بالسُّلطانِ يَقولُ لكَبير حُرّاسِه مُشيرًا إلى هبَةِ اللّه:

– خُذْه الآنَ من أمامِي، وَضعْه في السِّجن، حتَّى أنظُرَ في أمرِه.

ووُضعَ هبةُ اللّه في سِجنِ المعسكر ببلادِ الجبل، ثم أُخذَ مَعَ عَودةِ الجَيشِ إلى هَمَذان، وسُجِنَ بسِجنِ هَمَذان، مَعَ أصِحّاء، ومَعَ مَرضَى بشَتّى الأمراضِ، وبينَهم كانَ مَرضَى مُصابُون بالجُذام الدَّرَني، وبالجُذامِ العَصَبيِّ الذي ينتَشرُ بالجِسْمِ في بُقَعٍ بَيْضاءَ.

وشغَل هِبةُ اللّه نَفسَه وهو بالسِّجنِ في مُعالجةِ المرضَى نَهارًا، وفِي القراءةِ لَيلاً، وقد اطمأنَّ قَلبُه لحسن معاملةِ القَيِّم (المُشرف) على السِّجنِ لَه، بمدّه بِما يَحتاجُه مِن الكُتُبِ، والأدوية، والأقلامِ، والأحبار. وعَلى ضَوءِ

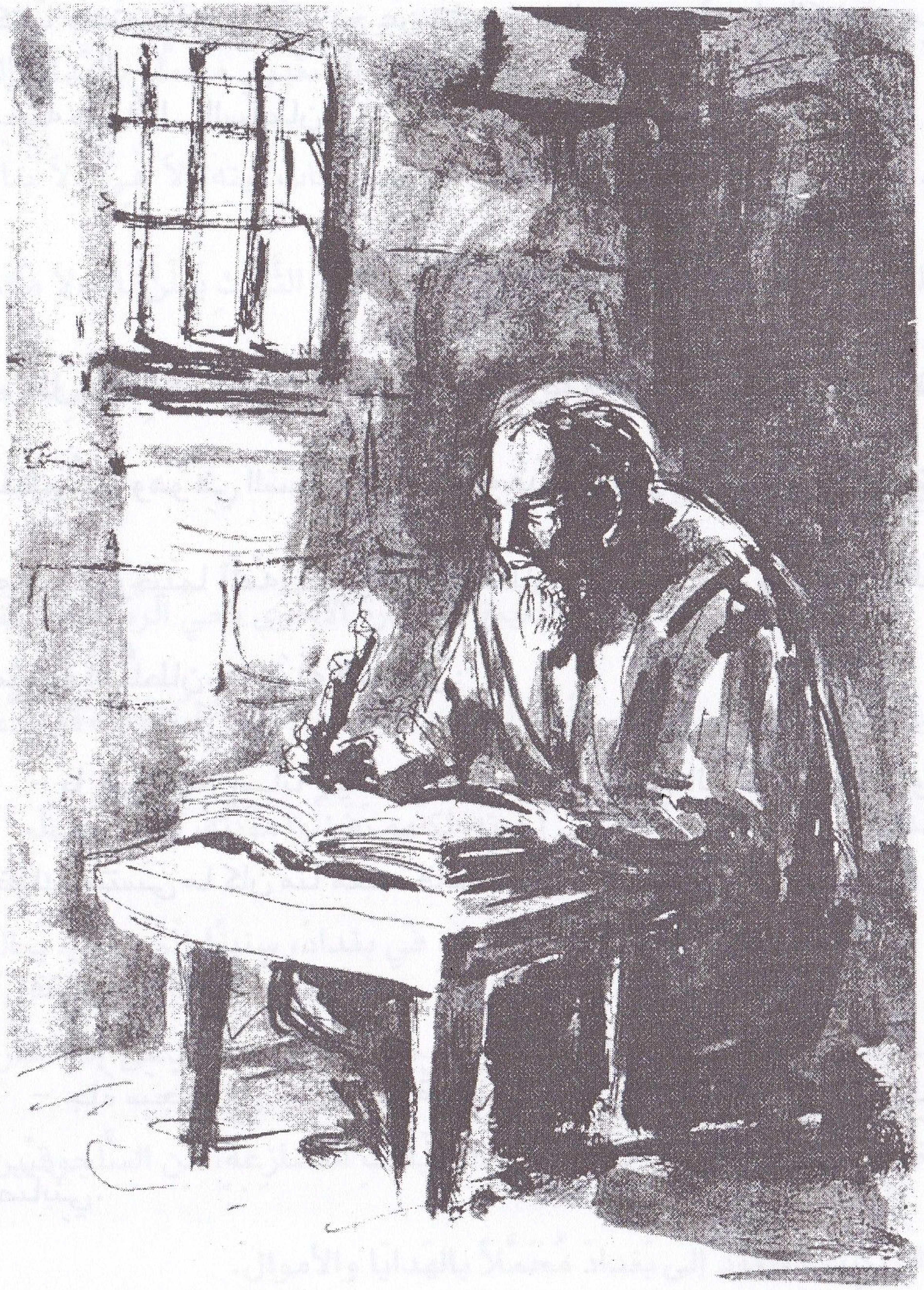

شَمعةٍ في لَيالي السِّجنِ وَضَعَ هِبةُ اللّه كِتابًا عَن الأقرباذين (عِلمُ الأدوية)، وكتابًا مُختَصرًا فِي التَّشريحِ عَن تَشريحِ جالينوس، وأرسلَ الكتابَيْن مِن سِجنِه هدّيةً إلى السُّلطانِ.

عفو السُّلطان

ظلَّ هِبةُ اللّهِ بالسِّجنِ قُرابةَ عامٍ، وقَد وَضَعَ فِي ذهنِه أنَّ ابنَ سينَا ألَّفَ مُعظَمَ كُتبِه وهُوَ فِي السِّجنِ، فاتَّخذَ منِه قُدْوَةً له. ووَضع رسالةً عَن «العَقلِ وماهيتِه» وحينَما أتمّه، صدرَ أمرُ السُّلطانِ بالإفراجِ عَنْه. وأخذَ هِبةُ اللّهِ لمقابلةِ السُّلطانِ، فقالَ لَه السُّلطانُ:

- يا هِبَةَ اللّهِ، أسأْنَا إليكَ يا أبَا البَركات، ونَسيْنَاك فِي سِجْنِك، ولا أظُنُّك ستَنْسى ما كانَ مِنَّا مَعَك. فاعفُ عَنَّا، وعُدْ سالِمًا إلى بغدادَ.

فقالَ هِبةُ اللّه للسُّلطان:

- جاءَ سَجْني لِي خَيرًا وبركةً للعِلْمِ يا مولاي. فَلا تَأسَ (تحزن) لِمَا أصَابَنِي.

لا مكانَ لكَ بينَنا

عادَ هِبةُ اللّه إلى بغدادَ، وتوجَّهَ بقافلَته الصَّغيرةِ، محمَّلةً بالهَدايا إلى دارِه بالكَرْخِ، لكنَّ امرَأتَه لَم تَسمَح لَه بعُبورِ بابِ بَيتِه، لاَ هِيَ ولاَ بَناتهِ الثَّلاثِ، لأنّه قَد أسلَمَ. وفُوجِئَ هِبَةُ اللّهِ ببناتِه الثَّلاثِ يَقُلْنَ لَه: «لاَ مَكانَ لَك بينَنا»، وأغلَقَتْ امرأتُه فِي وَجهِه البابَ. فَقالَ هِبَةُ اللّهِ لنفسِه، وهو يَبتسِمُ بمَرارةٍ: «يَهديهنَّ اللّهُ إذا شاء».

وتَوَجَّهَ هِبةُ اللّهِ بقافلتِه الصَّغيرةِ إلى دارِه الأُخْرَى بحيِّ الرُّصَافة، وفَتَحَ أبوابَها للمرضَى. وتزوَّج امرأةً مسلمةً مِن أهلِ بغدادَ. وكانَ أَبُوه وأمّه قَد ودَّعا الدُّنيا. وراحَ هِبةُ اللّه يَتوَدَّدُ إلى إخوتَه، لكنَّهم رَفضُوا مَوَدَّتَه، لأنَّه قَد أسلَم.

واستَسلَمَ هِبةُ اللّه لحياتِه الجَديدةِ في بغدادَ، سِنينًا إثْرَ سِنين، يُعالِجُ المَرضَى مِنَ الأغنياءِ والفُقَراءِ، وبينَ حينٍ وآخرَ، كانَ يُدعى إلى خارجِ بغدادَ، لِعِلاجِ الأُمَراءِ والمُلوكِ في الدُّوَيلاتِ المُتنازِعَةِ، مِن السَّلجوقيّين، والزِّنكيّين، ويَعودُ إلى بَغدادَ مُحمَّلاً بالهَدايَا والأموالِ.

وفي هَذه السِّنين، صارَ هِبةُ اللّه بينَ خواصِّ أطباءِ الخُلَفاءِ العبّاسيّين: المسترشِد باللّه، ثم الراشِد باللّه، ثم المستَنجِد باللّه. وكتبَ مَقالةً بعنوانِ: ظهورِ الكَواكبِ لَيلاً واختِفائِها نَهارًا، ومقالةً عَن دَواءٍ استَحدثَه بعنوان: «بِرْشَعْثا» وكتابًا بِعنوان: «أَمين الأَرْواح في المَعاجين».

رَهين المحبسين

وفي بغدادَ، راحَ هِبةُ اللّه يفقدُ بَصرَه، تَدريجيًا، وفَشِلَ في عِلاجِ نَفسِه، وفَشِلَ مَعَه في عِلاجِه كُلُّ أَطباءِ العُيونِ في بيمارستانات بغدادَ، وأطباءُ العُيونِ الزّائِرُونَ لبغدادَ، القادمونَ من بِلادِ فارسَ والشّامِ، فَقَد راحَ عَصَبُه البَصَريّ يضمُر، ويَضعُف، حتّى جاءَ يَومٌ فَقَد فيه هبةُ اللّه قُدرةَ الإبصارِ، وفَقَد مَعَه الإحساسَ بالضَّوءِ مِن حَولِه. ولاذَ «هبةُ اللّه» بالتأمُّلِ في بُستانِ دارِه، فِي دِفءِ الشَّمسِ شِتاءً، وظِلِّ الشَّجَرِ صَيفًا، ويَستَقبِلُ في اللَّيلِ الأَصدقاءَ والتَّلاميذَ والعُلَماءَ، الذين يَزورُونَه للسَّمَرِ. وبيْنَ صفوَةِ تَلاميذِه كانَ: جَمالُ الدّينِ بنُ فَضْلان، وابنُ الدَّهان المنَّجم، ويُوسُف البَغداديّ، وعَليّ المُهذّب ابنُ النقّاش.

وصارَ هِبةُ اللّه رَهينَ المحبَسَيْن: الدّارُ، والعَمَى، كَما يَقولُ أَبُوالعَلاء.

وكانَ قَد بَلَغَ الخامِسةَ والسَّبعينَ مِن عُمرِه، حينَ تَوَلّى المستنجدُ باللّهِ الخِلافةَ، ودُهِشَ هِبَةُ اللّه حينَ اختارَه هَذا الخَليفةُ لِيَكونَ كَبيرَ أَطبّائه، يَسأَلُه أطباءُ قَصرِ الخلافةِ، ويَستَشيرُونَه فِي عِلاجِ الخَليفةِ إذا مَرِضَ، وَعِلاجِ أهلِ قَصرِه مِنَ الرِّجالِ، والنِّساءِ، والأطفالِ.

حُلم الخِتام

وفِي عُزْلَةِ هِبةِ اللّه، راحَ هِبَةُ اللّه يفكّرُ في أنّهُ لَم يَترُكَ للدُّنيا كُتُبًا تُذكَرُ، يُخلِّدُ بِها ذكرَه بيْنَ الأجيالِ، واجتاحَهُ القَلَقُ لأنَّ مَا حصَّلَه عقلُه من مَعارِفَ سوفَ يَموتُ مَعَهُ، ويَفنَى بفنائه.

وقرَّر هبةُ اللّه ذاتَ صَباحٍ أن يُؤلِّفَ كِتابًا يمليه علَى تَلاميذِه، يُضاهي بِه كُتُبَ لأرسطو، وابن سينا، يجمَعُ فيه ما يَعتقدُ أنَّهُ حقَائق، في المنطقِ، والطَّبيعياتِ، والرِّياضياتِ، ويُؤيِّدُ فيه مَا يَقولُه بالدَّليلِ والبُرهانِ، وأرسَلَ هِبةُ اللّه فِي ذَلِكَ الصَّباحِ، بِمَن يَدعُو إليه تلاميذَه الأربعةَ المخلصين، ليلتَقُوا بِه في قاعةِ مكتَبَتِه الضَّخمة، بَعد صَلاةِ العَشاءِ.

وفي اللّيلِ، راحَ هبةُ اللّه يحدّث تلاميذه عن حُلْمه الكَبير، حلم الختام، فتعهّدُوا له بالتّناوُب فِي القُدومِ إليه كلَّ ليلةٍ، لكَيْ يَكتُبوا له مَا يُمليه عَلَيْهم، ويَقتَبِسُوا لكتابِه مَا يَطلُبُه مِن فقَرات بكُتُبِ مكتبَته.

وفي اللّيلَةِ التّالية بَدأَ هِبَةُ اللّه فِي إملاءِ مُقدّمةِ كِتابه مُحدّدًا منهجه في عَرْضِ أبوابٍ وفُصولِ أقسامِ كتابِه: المنطق، والطّبيعيّات، والإلهيّات، وفِي مُناقَشةِ آراءِ السّابقينَ، وتَحليلِها، والبَرهَنَةِ على ما يَسوقُه من تَعليقاتٍ وآراءٍ.

فَصل الخُلود

وحينَ مَرَّت ثَلاثةُ أعوامٍ، كانَ هِبَةُ اللّه قد أَنجزَ حُلمَهُ الكَبير، فَقَد أملَى كُلَّ أجزاءِ كتابِهِ الثّلاثَةِ، وكانَ عَدَدُ ما وَرَدَ بِها مِن فُصولٍ مائةً واثنَيْن وثَمانينَ فَصلاً، جَمَعَ فيهَا ابنُ مَلَكا آراءَ السّابقينَ مِنَ الإغريقِ، والمُسلِمينَ، فِي قَضايَا عَصره، فِي المَنطِق، والطّبيعيّاتِ، والإلهيّات، وآراءَه هُو في كلِّ ما قِيلَ مِن قَبلِه، وفِي قَضايَا أُخرَى أثارَها فِي كتابِه، خاصّةً فِي قِسمِ الطّبيعيّات.

وبيْنَ فُصولِ هَذا الكِتاب، كانَتْ فُصولٌ خاصّةٌ فِي قِسمِ الطّبيعيّاتِ فِي علمِ الحَركةِ. وقُدِّرَ لِمَا أملاَه هِبةُ اللّه فِي هَذا العِلْمِ، وهُو الآنَ أحَدُ فُروعِ علْمِ الهَندسةِ الميكانيكيّة، أن يكونَ هِبةُ اللّه بِه مِن علماءِ العَرَبِ الخالدين، فِي كُلِّ العُصورِ والبُلدانِ. فَقَد جاوَزَ هِبةُ اللّه بِما أَملاَه فِي هَذا العِلم، كلّ مَا قالَه مَن قبلَه فِي عِلمِ الحَرَكَةِ.

تَاريخ عـلم

قَبلَ العربِ والمُسلمينَ، كانَ الفَيلسوفُ الإغريقيّ «أرسطا طَاليس» قَد تَحدَّثَ عَن مبادِىءَ طَبيعيّةٍ ستةٍ، فِي كتابِه «السَّمَاع الطَّبيعِيّ»: المَكانُ والخَلاءُ، واللاّنهايةُ والزّمانُ، والحركةُ والمحرِّكُ، وبَعدَه تَحدَّثَ العالِمُ العربي «ابن الهَيْثَم» فِي كِتابِهِ «المناظرِ» عَن المَكانِ والخَلاءِ، والزّمانِ والحَركةِ، وعَن أنواعِ الحركةِ الطَّبيعيّةِ والقسريّة، وَعَن سُرعةِ الحَركةِ الرَّأسيّةِ والأفقيّةِ، وعَن قوةِ (كمية) الحَركةِ. ومِن بَعدِه، تحدّث «ابنُ سينا» فِي كِتابِه «الإشَارَاتُ والتّنبيهات» عَن مسائلِ علمِ الحَركةِ، كَما تحدَّثَ عَنها فِي رَسائِلِهم العلميّةِ جَماعةُ «إخوانُ الصّفا» فِي قِسمِ الطَّبيعيّاتِ، وكانَ أخطَرُ مَا تحدَّثَ فيهِ

العُلماءُ العَرب بَعدَ أرسطو، هُو وَضعُهم لقوانين الحَركةِ، التي نُسبَت بَعدَ خمسمائةِ عامٍ إلى العالمِ الرِّياضيِّ الشَّهير «اسحق نيوتن»، والتِي نشرَها «نيُوتن» فِي كتابِه «الأُصولُ الرِّياضيّةُ للفلسفةِ الطَّبيعيّة».

قَوانين الحَركة

يَقولُ قانونُ «نيوتن» الأول: «إنَّ الجسمَ يَبقَى فِي حالةِ سُكونٍ، أو فِي حالةِ حَركةٍ منتظمةٍ، في خطٍّ مُستَقيمٍ، مَا لَم تجْبره قوةٌ خارجيةٌ عَنْه، علَى تَغيير حالَتِه مِن سُكونٍ أو حركةٍ».

ويقولُ القانونُ الثّاني: «القوةُ اللاّزِمةُ للحركةِ تَتَناسَبُ مَع كلٍّ مِن كُتلَةِ الجِسمِ وتَسارُعِه».

ويقولُ القانونُ الثّالثُ: «لكلِّ فعلٍ ردٌّ فعلٍ مُساوٍ لَه في المِقدارِ، ومُضادٌّ لَه في الاتّجاهِ».

ولَم تَكُنْ هذهِ القَوانينُ الثّلاثةُ سِوَى إعادةُ صيّاغة، بِطريقةٍ رياضيّة، لِما تحدّث فيه ابنُ الهَيثم، وابنُ سِينا، وإخوانُ الصفّا، وهبةُ اللّه بنُ مَلَكا، ولِما شرحَه من بعدِهم: فخرُ الدّينِ الرّازي، ونصيرُ الدّين الطّوسي، في

شرحَيْهما لكتاب «الإشاراتِ والتّنبيهات» لابنِ سينَا.

فَمن قبلِ نيُوتن اهتدَى ابنُ سينَا إلى القانُون الأوّل للحركة، وقالَ به مِن بَعدِه، وقبل «نيُوتن»، العَالم الفنّان: «ليونارديُودافِنشي»، والعَالم الرّياضي الفلكِي: «جاليليُو».

ومن قبلِ نيُوتن، توصَّل «هِبةُ اللّه بنُ مَلَكا» إلى القانُونِ الثّاني مِن قَوانينِ الحركةِ، حينَ قالَ: «كلُّ حَركةٍ هِي فِي زَمانٍ لاَ مَحالةَ، وكُلّما اشتَّدَت قُوّةُ الحركةِ، كلَّما ازدادتِ السُّرعةُ، وقَصُرَ زَمَنُ هذهِ السُّرعة»، كَمَا تَوصَّلَ إلى القانُونِ الثّالث للحركةِ، حينَ قالَ: «إنَّ الحلَقَةَ المُتجاذَبَةَ بيْن متجاذبَيْن لَها، لِكلٍّ منهُمَا قوّةٌ مقاومَة لقُوّةِ الآخَرِ، وكلٌّ مِن القُوّتَيْن مَوجودَتَان في جذبِ المتجاذبَيْن».

وكل الفرقِ فِي الحَديثِ عَن قَوانينِ الحركةِ الثّلاثة، أنّ نيُوتن العالَم الرّياضي صاغَ هَذهِ القَوانينَ صياغةً رِياضيّةً، عَلى حين صاغهَا العَربُ صِياغةً فَلسَفيّةً.

الممكن والمُستحيل

وفِي كتابِ هِبةِ الله «المعتبرُ فِي الحكمة»، تحدّث هِبةُ الله عَن الحَركةِ الطَّبيعيّة، فِي سُقوطِ الأجسامِ مِن أعلى إلى أسفَل، بتأثيرِ الجاذبيةِ الأرضيّةِ، وعَن الحركةِ القَسريةِ للأجسامِ، مِن أسفلَ إلى أعلَى، أو مِن جهةٍ أُفُقيّةٍ إلى جهَةٍ أُفُقيّةٍ أُخرَى، بتأثيرِ مُحرّكٍ لَها. وتَحدَّث عَن التَّساقُطِ الحُرِّ للأجسامِ، علَى أقصَرِ طَريقٍ مُستَقيمٍ، وعَن أنَّ الجِسمَ السَّاقِطَ سُقوطًا حرًّا، تَزيدُ سُرعَته، وقُوّةُ (كميّة) حرَكَته مَع مَسافَةِ السُّقُوطِ. وعَن أنّ سُرعَةَ السُّقوطِ واحدةٌ، لا تتأثّرُ بثِقَلِ الأجسامِ وخِفّتِها، فقُوّةُ الجذْبِ الأرضيّ لَها واحدة، لكنَّ مقاومةَ وَسَطِ السُّقوطِ، مثلَ الهَواء، هِي التِي تَعوقُ سُرعةَ الحرَكَةِ. وعَن أنَّ الشَّكلَ الهَندَسيّ للجسمِ المُتَحرّكِ السّاقِط، من استدارةٍ أو استِواءٍ، أو مَخرُوطيّة، لَه أثَره في سقوطِ الجسمِ، سرعةً أو بُطئًا. وعَن أنّ الحركةَ لَو حدثتْ في خلاءَ لا مقاومةَ فيه، لتزايدَتْ سرعتُها أضعافًا، فلا مقاومةَ تعوقُ سرعتَها. وعَن أنَّ الحركةَ تَزيدُ بقوةِ الدَّفعِ للجسمِ، وتَقلُّ بضعْفِ هَذا الدَّفْعِ.

وقَبْلَ العالمِ الإيطالِيّ «ليوناردُو دافنْشِي»، تحدَّث «هِبةُ الله ابنُ مَلَكا» عَن استحالةِ الحَركةِ الطَّبيعيَّةِ، لأيِّ جِسمٍ، حركةً دائمةً، مِن تلقاءِ ذاتِه، وبِلاَ نهايَةٍ، أو دون توقُّفٍ، وهِي الحركةُ التي كانَ يَحلمُ بِها العلماءُ والفَلاسفَةُ مِن قَديمِ الزّمانِ.

حنين... ووصيّة

فِي القَرنِ السّادسِ الهِجريّ، طارَ صيتُ «هِبةُ الله» بكتابِهِ «المعتبرُ في الحِكْمة» مثلمَا طارَ صيتُه مِن قبلُ كطبيبٍ معالِجٍ، حتّى لقّبه العلماءُ وطلاّبُ العلمِ في بغدادَ، بلقبٍ مَلَكيّ، هو «أوْحَدُ الزّمان». وكانَ هبةُ الله فِي ذَلِكَ الحينِ يُصابُ بأمراضٍ مُزْمِنَة، مُتلاحِقة. فقَدَ كُلَّ سَمعِه، وأُصيبَ بالبَرَصِ، وبجُذامٍ عصبيّ كانَ كامِنًا فِي جسمِهِ مِن أيّامِ سِجنِه في هَمَذان. لكنَّ هِبةَ اللّهِ لَم يَتَسرَّبْ اليأسُ إلى روحِه، فقَد ظَلَّ صاحيَ العَقْلِ، يَطلُبُ مَا يَحتاجُه مِن دَواءٍ أو طَعامٍ أو شَرابٍ بكلماتِ لِسانِه.

وفِي عامِه الأخير، وكانَ قَد ناهزَ الثّمانينَ، تاقَتْ نفسُه إلى صَيْفِ هَمَذان ونَسيمِ الجبالِ فِي هَمَذان، وكَأنّه شاءَ لأن يُوافيه الأجَلُ، وهُوَ

بهَمَذان، مثلَما وافَى الأجَلُ قَبلَه ابن سينَا في هَمَذان، وحملَه تَلاميذُه في هَوْدَجٍ مُريحٍ علَى ظَهرِ جمَلٍ إلى هَمَذان.

وحينَ اقتَربَ الأجَلُ، طَلَبَ هبةُ الله أوراقًا، وقَلَمًا، وراحَ يكتُبُ، دُونَ أن يَرَى مَا يَكتبُه، رسالةً إلى صَديقِه الخليفةِ العبّاسيِّ المُستنجِد بالله، يُناشدُه فيها أن يَفرضَ عَطاءً سَنويًا من بَيتِ المالِ لِبَنَاتِه الثَّلاثة، فكلُّ ثَروَتِه مِن بَعدِه لَن يرثْن فيها دِرهمًا، لأنَّهنَّ غَيرُ مُسلِمات، وستُرَدُّ إلى بيتِ المال. ثُمَّ كَتَبَ هبةُ الله بيدٍ مُرتجفةٍ كلماتٍ مُتناثرةٍ، علَى ورقةٍ أُخرى، لينقُشَها تَلاميذُه علَى شاهِدِ قَبرِه، حينَ يُوارَى الثَّرَى.

* * *

ودَّعَ هبةُ الله ذاتَ صَباحٍ، دُنيا النّاسِ، وحينَ بَلَغَ الخَبَرُ الخليفةَ المستنجدُ بالله، أمرَ بإعادةِ جثمانِ هبةِ الله إلى بغدادَ، ليُوارَى الثَّرَى في مَقابرِ المُسلمينَ ببغدادَ، وفَرَضَ عَطاءً سَنويًا جَزيلاً لبناتِ هبةِ اللهِ الثَّلاثة. وجاءَ نقّاشٌ ماهرٌ نَقَشَ علَى شاهِدِ قَبرِ هبةِ اللهِ مَا أرادَ هُو أن يُنقَشَ عليه من كَلمات: «هَذا قَبرُ أوحدِ الزَّمانِ أبي البَرَكات ذي العبر، صاحبِ المُعتبَر».

* * *

وُلِدَ «هبةُ الله بنُ مَلَكا البَغداديّ» سنةَ أربعمائةٍ وثَمانينَ هجريّة، ألفٍ وسَبعٍ وثمانينَ ميلاديّة، وودّعَ الدُّنيا سنةَ خمسمائةٍ وستّينَ هجريّة، ألفٍ ومائةٍ وخمسٍ وستّينَ ميلاديّة.

وعبْرَ القُرونِ، أرّخَ كُتّاب المَوسوعاتِ العَرَب، لحياةِ أوحَدِ الزّمان. كتبَ عَنهُ الصَّفَديّ في «الوَافي بالوفيات»، والذَهبيّ في «سِيَرِ النُّبلاء»، وابنُ أبي أصيبعة في «تاريخ الحُكماء» وحاجي خليفة في «كشْفِ الظّنون»، والزِّركْلي في «الأعْلام»، والبَغداديّ في «هديةِ العارفين»، وعمر رضَا كحّالة في «مُعجمِ المؤلّفين».

وكتبَ عَنهُ أكثَرُ مُؤرّخي الحَوْليّات العَربيةِ والإسْلامية، وفي مقدّمَتِهم ابنُ العبري في كتابِه «تاريخُ مختصر الدول».

وفي القَرنِ العشرين كتبَ عَنهُ «جلال شوقي» في كتابِه «تُراثُ العَربِ في الميكانيكا» والدّفاع في كتابِه «أعلامُ العَربِ والمسلمينَ في الطّبِّ»، وكتبَ محمد علي أبو ريّان فَصلاً ضافيًا، عَن حَياةِ أوحَدِ الزّمانِ، وآرائه الفَلسَفيّة، ونَقدِه لابنِ سينَا، في قِسمِ الإلهيّات، في كتابِه «تاريخُ الفكرِ الفلسفيِّ في الإسْلام».

* * *

ومنَ العَجيبِ أنّ كتابَ أوحَدِ الزَّمانِ «المعتبرُ في الحكمة»، لَم يُطبَع حينَ طُبِع بالعربيةِ، ولأوّل مرة، إلاّ في عام 1937، في مطبعةِ «الدّكن» بمدينة حيدر آباد، بالهند، والأكثَرُ عَجَبًا أنَّ الأبَ الحَقيقِيّ لعلمِ الحركةِ، وقَوانينِ الحَركةِ، مِن بَعدِ ابنِ سينَا، وإخوانِ الصَّفا، ظَلَّ مَجهولاً، وقَد أحيَا بفكرِهِ فِي عَصرِهِ بالمشرقِ فِي كتابِهِ المُعتبرِ، رُوحَ التَّنويرِ، التِي أحياها ابنُ رشدٍ فِي عَصرِهِ بالمَغربِ. وكانَ حريًّا (جَديرًا) بالأمّةِ الإسلاميّة، أنْ تَحتَفِلَ بذِكرَى مَولِدِ «أوحَدِ الزَّمانِ» قَبلَ ثَلاثةَ عَشَرَ عامًا، إحياءً لذِكرَى مُرورِ تسعمائةِ عامٍ عَلى مَولِدِ «أوحَدِ الزَّمانِ أبُو البَركات هِبةُ اللّه بنُ مَلَكا البَغداديّ».

المطبعة الحديثة
IMAG
للفنون المطبعية

35

ابن ملكا

ابن ملكا طبيب عربى وفيلسوف وعالم عاش فى القرن السادس الهجرى، الثانى عشر الميلادى. ذاعت شهرته كطبيب معالج فى زمانه، وأملى- بعد أن فقد بصره-كتابه الموسوعى الخالد المعتبر فى الحكمة . واكتشف فى كتابه قوانين علم الحركة الثلاثة، قبل: دافنشى، وجاليليو، واسحق نيوتن، ووضع معها أسس علم الحركة وأنواعها. إنها قصة تثير الفخار، يقرؤها الصغار والكبار.

صدر من هذه السلسلة:

1- ابن النفيس
2- ابن الهيثم
3- البيروني
4- جابر بن حيان
5- ابن البيطار
6- ابن بطوطة
7- ابن سينا
8- الفارابي
9- الخوارزمي
10- الإدريسي
11- الدميري
12- ابن رشد
13- ابن ماجد
14- القزويني
15- ابن يونس
16- الخازن
17- الجاحظ
18- ابن خلدون
19- الزهراوى
20- الأنطاكي
21- ابن العوام
22- الطوسي
23- الكاشي
24- الوزان
25- ابن الرزاز
26- تقي الدين
27- الرازي
28- الكندي
29- الخليل
30- ابن حمزة
31- الزرنوجي
32- يوحنا بن ماسوية
33- ياقوت الحموي
34- ثابت بن قرة
35- ابن ملكا
36- ابن الشاطر

445

© Editions Anep
ISBN: 9947-21-279-3
Dépôt légal: 1699-2006